

## النزعات القومية

في أدبنا المعاصر

للأستاذ سامي الكبيالي

... حين أذكر الأدب العربي في معرض بحث من البحوث الأدبية أريد من ذكره الشمول الذي يضم تحت لوائه الأدب المصري والأدب الشامي والأدب العراقي والأدب الحجازي والأدب الأندلسي وكل بقعة عربية ينتج أدباؤها وشعراؤها أدباً يعبر عن شتى منازع الحياة .

والنزعات القومية في أدبنا المعاصر بدأت قوية في شعر الشعراء وأدب الكتاب منذ بداية القرن التاسع عشر ، وقبيل هذه الفترة بسنوات .

فقد اعتبر الأدباء والشعراء والمفكرون - اعتبروا أدبهم وسيلة للنهوض بأوطانهم وبالأمة العربية التي ظلت أجيالاً طويلة تحت سبغ الغيوبة والجهالات محكومة لغيرها ، لا تتمتع بما تتمتع به الأمم الحرة أو بما كانت تتمتع به الأمة العربية يوم كانت ذات صولة وسيادة وسلطان .

ولقد انبثقت الصيحات من هنا وهناك ، تقاوم نزعات الطغيان وتدعو إلى التحرر من نير الأجنبي ، وتهيب بالشعوب العربية أن تعمل عمل أسلافها في سبيل العزة والكرامة ، وفي سبيل سيادتها وحريتها السليبية .

ففي مصر ، كما في سوريا والعراق كانت الدعوة إلى اليقظة والتحرر هي سبيل الشعراء والكتاب والمفكرين . .

ولا نرجع بعيداً إلى الوراء فحسبنا أن نلمع إلى هذا الماضي القريب الذي عشنا في ظلاله . . فصيحات الأفغانى ومحمد عبده وسعد زغلول وأحمد لطفى السيد وقاسم أمين وشوقي وحافظ في مصر - أن صيحاتهم كانت دعوات صارخة لتحرير مصر والشرق من العبوديات - عبودية الجهل ، وعبودية الاحتلال . .

أى كان إنتاجهم الفكرى يقوم على البعث القومى ، وكان صورة من هذه النزعات التى تثير أدق ظاهرة تمس شعور الأمة ووجدانها القومى .

وفى الشام كانت صيحات الكواكبي واليازجى والدلال وأديب اسحق وشكيب أرسلان وخلييل مطران صيحات قومية – كان أدبهم وشعرهم يتناول النزعات القومية أكثر من أى شىء آخر . . .

وقل مثل هذا عن الزهاوى والرصافى والكاظمى فى العراق . . . وأندادهم من كبار الأدباء والشعراء فى مختلف البلاد العربية . . . أن أدبهم لم يكن فى تلك الفترات ، وسيلة من وسائل التلهية بل كان أداة لهُز وجدان الأمة وضميرها الغضبان .

ولا ضمير علينا أن نجول جولة قصيرة ، من قبيل الاستطراد ، فى أدب أولئك الهداة المصلحين ، الذين أفرعهم ما كانت عليه الأمة العربية من خمول وغفوة ، فراحوا يهيبون بها أن تصحو وأن تنهض بأفانين مختلفة من القول – من رائع النثر وجيد الشعر . . .

فجمال الدين الأفغانى ، إلى أنه مصلح دينى ، كان فى مقالاته وخطبه ، هذا التأثير القومى الذى يريد للشعوب الشرقية أن تتحرر من الجهالات ، وأن تستعيد عزتها وكرامتها ومكانتها السامقة بين الأمم الكبيرة الحرة ، أى كانت صيحاته ، ولا سيما فى الفترة التى شهد فيها التدخل الأجنبى فى عهد اسماعيل – كانت صيحات ذات طابع قومى ، وكانت كلماته كالسوط فى جسم الشعب ، فن كلماته التى دعا فيها المصريين إلى التحرر والثورة قوله :

« إنكم معاشر المصريين قد نشأتم فى الاستعباد ، وربيتم فى حجر الاستبداد وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك الرعاة إلى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتثنون من وطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الحسف والذل ، وأنتم صابرون بل راضون ، وتستزف قوام حياتكم – التى تجمعت بما يتحلب من عرق جباهكم – بالعصا والمقرعة والسوط وأنتم صامتون ، فلو كان فى عروقكم دم فيه كريات حيوية ، وفى رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية ، لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة . تناوبتكم أيدي

الرعاة ، ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لها ولا صوت .

انظروا أهرام مصر ، وهياكل منفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوه ، وحصون دمياط ، فهى شاهدة بمنعة آبائكم وعزة أجدادكم ، هبوا من غفلتكم ، اصحوا من سكرتكم ، عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء . .

وبالرغم من قسوة هذه الكلمة وثقل وقعها على النفوس والأسماع فقد تقبلها المصريون بقبول حسن ، لصدورها عن قلب رجل محب يريد الخير لمصر والحياة الحرة السعيدة للمصريين . .

ومقالات محمد عبده التى كان يغمرها الحماس الدينى أيضاً كإمام من أئمة الإسلام كانت فى مجموعها صيحات قومية مثيرة حتى رأى بعض الباحثين الذين أرخوا لمصر أن مقالاته كانت من العوامل التى أضرمت نار الثورة العراقية ، فن كلماته الحكيمة فى قداسة الوطن قوله :

« . . . وجملة القول أن فى الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدوداً .

الأول : أنه السكن الذى فيه الغذاء والوقاء والأهل والولد .

والثانى : أنه مكان الحقوق والواجبات التى هى مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهران .

والثالث : أنه موضع النسبة التى يعلو بها الإنسان ويعز ، أو يسفل ويذل وهو معنى محض . .

فاذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصرى حب الوطن من كل هذه الوجوه . .

ثم قال : وكأنى به كان يرد من طرف خفى على كلمة أستاذه جمال الدين التى تقدمت هذا الكلام :

« وقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطنى عن ذوى الحقوق والواجبات فى مصر وإلباسهم جميعاً لباس الجهالة والذل ، ولكن أبت الحوادث

إلا أن تثبت لنا وجوداً وطنياً ورأياً عمومياً ولو كره المبتلون . على أن منهم فئة لا يزالون يؤلمون أسماعنا بما يكررون من سفاسف القول من مثل أننا تعودنا احتمال الظلم والحييف ، وألفنا الخدمة والرق فلن يستقل لنا رأى ، ولن نهتدى سبيل الحرية كأنما هم لا يعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحييف أعصاراً وكانوا في قديم الأيام على ضروب من الرق وانخفاض الجناح وأن العالم بأسره كان فريقين : أحراراً يظلمون ، وعبيداً يطيعون . أو لم يكن في بلاد الفرنسيين من قبل هذا العهد صنوف من الرقيق يشتغلون في الأرض لغيرهم ويباعون كما تباع العجماوات ، أو لم يقل كاتبهم فولتير في وسط المائة السابقة .

« لا يزال في بلادنا ستون ألفاً أو سبعون ألفاً عبيداً للربان » .

فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيين من الوصول إلى ما أدركوه من رفعة المقام وأن يروا أمثال تيارس وجريني وغمبتا في أبناء كانوا من قبل عبدانا أرقاء . .

ولئن كان من فضل هذه المائة أن يكتب في صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف فقد رجونا وحقق الله هذا الرجاء أن يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء هذا العصر ، وحسن ذلك ابتداء وحسن ذلك ختاماً .

ومقالات أحمد لطفي السيد وخطبه كانت في مجموعها دعوة صارخة إلى تعزيز الروح القومية ، وقد يكون من الأوائل الذين بذروا بذورها الحصبة في عقلية الحيل الحديد ، ووجهوه هذه الوجهة التي حولته من التعلق بأذيال « العثمانية » إلى التمسك بأهداب « المصرية » الصميمة .

وكتب قاسم أمين التي تفيض بالزعات الاجتماعية ، والاتجاهات التقدمية كانت في مجموعها أيضاً ذات أهداف قومية صريحة .

أما سعد زغلول فحسب أدبه وخطبه أن يكون من أثرها لإضرام نار الثورة المصرية في سنة ١٩١٩ والتي لم يقف لهيها في حدود المملكة المصرية بل تعدى هذا اللهب إلى الشرق العربي بكافة أقطاره وشتى شعوبه ، فكانت صيحاته الثورية القومية ذات دوى ورنين ، وأثر مكين ، في قلوب الشرقيين أجمعين .

ومن قبله الزعيم الوطني الثائر مصطفى كامل ، فقد كان أدبه ذا لون قومي

صريح ، وكانت كل خطبه ومقالاته دعوة إلى الثورة والتمرد ، فمن كلمة جاءت عرضاً في إحدى خطبه النارية قوله :

« اذكروا مصر . . . »

فإن من ذكراها ذكرى آلامها .

وذكرى الآلام يجر حتماً إلى ذكر عوامل الشقاء .

اذكروها كما يذكر الولد الحنون أمه الشفيقة وهي على سرير المرض

والعناء . . .

اذكروها بالآلامها وإن كان غيركم يذكر بلاده بمجدها ورفع شأنها . . .

اذكروها فأنتم ما دتم مقدرين لمصائبها ، عارفين بحقيقة آلامها دام الأمل

وطيداً في سلامتها ودام الرجاء .

اذكروها فمن المستحيل أن يرى العاقل النار في داره ، والداء في شخص

أمه ، ويهمل النار ويهمل الداء ، ومن المستحيل كذلك أن يكون الوطن في خطر

ونحن نيام ، وأن يعمل الأجنبي لامتلاك بلادنا وسلب حياتنا بل لاستعبادنا

واسترقاقنا ونحن جامدون لاعمل ولا حراك .

ألقوا ، أيها السادة ، بأنظاركم إلى الأمم الحرة تجددوا كل فرد فيها يدافع

عن وطنه ويدود عن حوض بلاده أكثر من دفاعه عن أبيه وأمّه بل هو يرضاهما

ضحية للوطن ويرضى نفسه قبلهما قرباناً يقدمها لإعلاء شأن بلاده . ويعد الموت

لأجل الوطن حياة دونها الحياة البشرية ووجوداً دونه كل وجود ، فلم لا يكون

المصري على هذا الطراز ، ووطنه أجمل الأوطان وأحقها بمثل هذه المحبة الشريفة

الطاهرة .

اسألوا التاريخ ، أيها السادة ، ما واجب أمة دخل الإنكليز دارها خدعة

وعملوا لامتلاكها وسلبها كل سلطة وكل قوة — يجبكم التاريخ أن واجب أمة هذا

شأنها أن تعمل بكل ما في استطاعتها ضد مغتصبها ، وأن تبدل في سبيل خلاص

وطنها كل ما تمتلك من مال ورجال . «

وشعر شوق وحافظ والمطران — كان الكثير من شعرهم نفحات قومية

تهيب بالشرق إلى التحرر والنهوض .

ومقالات الكواكبي كانت صيحات مدوية في أرجاء الشرق العربي - تلك المقالات التي اشتمل عليها فيما بعد كتابه « طبائع الاستبداد » ، ولا نبالغ إذا قلنا أنه كان أجراً مفكر عربي دعا إلى الثورة والتمرد والتحرر - الثورة على الظلم والاستبداد ، والتمرد على الطغاة المستبدين ، والتحرر من الجهالات والعبوديات .

وأديب اسحق المفكر الحر الذي كان متأثراً بالآداب الأوروبية - بأدب فولتير وجان جاك روسو وبمبادئ الثورة الإفريقية - فقد كان من دعاة الحرية وكانت النزعة القومية تنبثق كاللهب من ثنايا مقالاته وخطبه . . فمن كلماته من مقال كتبه سنة ١٨٨٠ .

« لقد عرف الناس الآن شرور الاستبداد ، وترفعت نفوسهم بالعلم عن الرضا به ، وصار الأمر شورى عند جميع الأمم المتقدمة إلا روسيا . . . وذلك أن صحت تسمية الدولة المستبدة مطلقاً بدولة متمدنة . ان ثورة فرانسوا برزت إلى عالم الفعل عام ١٧٨٩ وصدمت قوة الاستبداد فزلزلتها ، ودفعت سطوة التقاليد فضعضعتها ورفعت عن العيون نقابها ، وعن النفوس حجابها فأنت من جانبها نور الحرية ، وخلعت جلايب الرق والعبودية ، فتصدى لها أعوان الرق وأنصار العبودية وما آلوا في قتالها جهداً ، فلقيتهم وهي ترى الموت في الحرية حياة ، وفي الحياة في الرق موتاً ، فلم يبلغوا منها قصداً ، ورسمت في عالم الوجود قدمها ، وأدهشت الدنيا بشدة حولها » .

وابراهيم اليازجي ، وهو من علماء اللغة الأفذاذ ، لم يكن أقل اندفاعاً في الدعوة إلى الروح القومية من الكتاب والشعراء ، فكان أدبه يفيض بالنزعات القومية الصارخة فن قوله :

تنهبوا واستفيقوا أيها العرب      فقد طمى السيل حتى غاصت الركب  
فيما التعلل بالآمال تخدعنا      وأنتم بين راحات القنسا سلب  
كم تظلمون ولستم تشتكون وكم      تستغضبون فلا يبدو لكم غضب  
فشمروا وأنهبوا للأمر وابتسدروا      من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

وعبد الحميد الرافعي ، الشاعر السوري الحر ، ابن طرابلس الشام -

كانت له صيحات قومية تدعو إلى « العصبية الجنسية » فن شعره يهيب بنى قومه إلى تعزيز هذه العصبية قوله :

ما تصلح الدنيا ولا ناسها      ما لم يل الأقسام أجناسها  
هبوا بنى العرب إلام الكرى      وقد دعا الآمال دهاها  
فكم تقيمون على ذلّة      وروضة الصبر ذوى آسها  
ألستم نسل القروم الأولى      تتعل الهامات أفراسها  
فجردوا العزم الذى طالما      شق صدوراً طال وسواسها

ومعروف الرصافي الشاعر العراقي الكبير ، فقد ظل خمسين سنة يهيب بالأمة العربية أن تفيق وأن تهض ، ولأكثر شعره هذا الطابع القومي .

وارتفع صوت عبد المحسن الكاظمي الشاعر الأبى بالشعر القومي وبهذه النزعات القومية الثائرة :

يا أيها العرب واد      عوا العرب أنتى وجدوا  
لئن تشاءوا أن تُترا      حوا من عناء فاجهدوا  
ألستموا من حرموا      حقوقهم واضطهدوا  
وكلما عنّ لهم      ذكر الحمى تنهدوا  
أما كفاكم حافزاً      ذكر الذين استشهدوا  
يا قوم أن تهاونوا      فحركم مستعبد  
من نام عن أوطانه      فذاك ميت يلحد  
ومن يمت دون حما      ه فهو حى يحمد  
الوطن الروح وما      أهلوه إلا الحسد  
وكيف يسهو بدن      عن روحه ويرقد  
مجدى وما مجدى إ      لا الوطن المجدد  
حبيب نفسى وطنى      أهله والقصد  
رب أناس عيشوا      بنا ولم يتهدوا  
ضلوا الهدى ولقنوا      يبطلهم وزودوا  
إذا رأوا شاكلة ال      قوم رموا وسددوا

هيا بنا نعد ما	تهى إليه العدد
يفوز من عدته	عزيمة لا تخمد
وغيره جنوتها	طول المدى تنقد
إن قيل خطب انبرى	أشبهها والأمرد
بعض لبعض حرم	بعض لبعض عضد
وكلهم على العدى	إذا العدى تمردوا
على سوى نفوسهم	في الأمر لم يعتمدوا
يا حبذا لو عاد بال	بشر القريب العود
نروح في ديارنا	والعيش عيش أرغد
ونفتدى أوطاننا	والعز عز سرمد

والقصيدة طويلة وهى مائتى بيت تقريباً ، وقد كان الكاظمى يرثى الشعر ولا تقل قصيدته الواحدة عن المائة والمائتى بيت وكلها تفيض بالشعر القومى العارم .

لقد كان للقصائد التى نظمها الزهاوى والرصافى والكاظمى والشيبى وغيرهم من شعراء العراق - وهى ذات نزعات قومىة صارخة - كان لهذه القصائد أثرها البليغ فى إهاجة النفوس التى انتهت لا إلى « الوعى القومى » فحسب بل إلى إضرار أكثر من ثورة على الغاصبين .

\*\*\*

وكما كان الاتجاه القومى سبيل الكتاب فى القرن التاسع عشر ، فقد ظل هذا الاتجاه سبيل الكثير من الكتاب والشعراء والمفكرين حتى مطلع القرن العشرين وإلى يومنا هذا . . ذلك لأن الأمة العربية لا تزال فى نضالها العنيف مع الأمم المستعمرة . . ولا بد للأديب من أن يتحسس بأحاسيس قومه ويعبر فى نثره وشعره عن هذه الأحاسيس .

ولئن كانت النزعات القومية فى أدبنا بالأمس محدودة النطاق فقد اتسعت اليوم واستفاضت وأصبحت شائعة على ألسنة القادة والزعماء والأدباء والشعراء

تتملاً أعمدة الصحف وتصارف في شؤونها الرسائل والكتب . . وما تلك المقالات الرئيسية التي تكتب كل يوم في الصحف ، والخطب التي تلي في المناسبات القومية ، إلا صورة من صور الأدب القومي الذي يؤرخ مرحلة من مراحل جهادنا الطويل ، ولن يتسع المجال لأن نورد نماذج مما تفيض به النفوس في يومنا هذا ، فهذا فوق المستطاع من جهة ولأن القراء على اتصال كل يوم بهذا الأدب الذي يرسم لهم الطريق الواضح في سبيل الانطلاق والتحرر من كل ما يعيق سير هذه الأمة التي دب الوعي في كل نبضة من نبضات جسمها .

ثمة ظاهرة جديدة بأن نشير إليها في مقالنا هذا ، فقد كان لازدهار الحركات القومية أثره غير المنكور في هذا التطور الذهني الذي يساير نهضة الأمة العربية . . فقد كثرت الأدباء والشعراء والمفكرون والعلماء وأخذ إنتاجهم ألواناً مختلفة من شتى فروع العلم وألوان المعرفة . . وهذا شيء طبيعي قد تمشى مع وثبة الأمة وتطورها وبالرغم من اتساع هذه الآفاق التي اشتمل عليها الأدب العربي نتيجة لهذا التطور — بالرغم من ذلك لم يخل أدبنا من هذه التيارات القومية التي تثير فينا حس النضال .

والأدب القومي عند جميع الأمم، وفي مختلف العصور ، بواعث لحفز الهمم وركائز لدعم السيادة ، وما نخلت أمة قط ، حتى الأمم القوية التي تتمتع بسيادتها وجبروتها عن دعم أدبها القومي ، لأنه غذاء دسم للأمة وأي غذاء بل هو بعض مقومات كيانها . . وهو ، إلى قيامه بهذه المهمة الخطيرة في إحياء الشعور القومي والحفاظ عليه ، يظل صورة للتعبير عن خوارج الأمة وأداة لرسم شخصياتها وهو إلى هذا أيضاً حشد رائع من اللوحات الفنية التي تنعكس على ألوانها مباحج الوطن بأرضه وسمائه بجباله وأوديته بأنهره وبحيراته ، بأكواخه وقصوره ، بهوائه ومائه وكل ما يربط الإنسان بالأرض التي أنبتته والسماء التي أظلته . .

لا أريد أن أسترسل في وصف الدور الخطير الذي يلعبه الأدب القومي في حياة الأمم ، فقد مررت بهذه الكلمة استطراداً في معرض كلامي عن النزعات القومية في أدبنا المعاصر . . والذي أريد أن أشير إليه في ختام هذا البحث أن النزعات القومية في أدبنا ، قد بدأت ، كما قلت ، منذ بداية القرن التاسع عشر

ولا تزال حتى يومنا هذا ، ذلك لأن الأمة العربية ما تزال في نضال مستمر مع الأمم ذوات النزعات الاستعمارية . . . وبدى أن تكثر ، نتيجة لذلك ، النزعات القومية في أدبنا الذي يصور اتجاهاتنا في هذا النضال أدق تصوير ، ولا سيما وقد مرت الأمة العربية خلال منتصف القرن العشرين بأحداث جسام ، منذ كان مصيرها مرتبطاً بالأمبراطورية العثمانية ، إلى أن شب النزاع قوياً بين العرب والترك ، إلى اندلاع الثورة العربية من بطاح مكة ، إلى تقسيم البلاد العربية إلى مناطق نفوذ افرنسية وانكليزية ، إلى هذه الثورات التي نشبت في مصر وفلسطين والشام والعراق ضد الغاصبين - كل هذه الأحداث القومية قد أثارت شعور الكتاب ، وقرائح الشعراء بصورة خاصة ، فراحوا يعبرون عن هذه الأحاسيس تعبيراً صادقاً هو بمجموعه بعض صور الأدب القومي ، وقد ظهر ذلك بارزاً قوياً في محنة فلسطين الأخيرة حتى كاد أدبنا العربي في هذه الفترة يصطبغ بهذا اللون الدامي الذي عرفه الأدب العربي قبل خمسمائة سنة عندما أضاع العرب في أوروبا الأندلس - ذلك الفردوس المفقود الذي بكيناه بالدم الأحمر . . .

ويضيق المجال لو رحنا أرمز إلى هذه النزعات ، وهي كثيرة في شعر الشعراء وأدب الأدباء ومقالات الكتاب وبحوث المفكرين وحتى في كتب بعض المؤلفين . . . وهي غذاء روحى لنضالنا القومي في هذه النهضة التي تهدف أول ما تهدف إليه - إلى تحرير البلاد العربية سياسياً واقتصادياً واجتماعياً لتستعيد مكانتها السامقة من جهة ، وتعمل من جهة ثانية ، مع الأمم الحرة المخلصة لمبادئها في سبيل هتاءة الشعوب التي لا تزال ترسف في قيد الاستعمار .

سامى الكيبالى